جذور الرأى العام المصرى وتطوره فيما بين ثورتى ١٩١٩ ، ١٩٥٢

بقلم : الدكتور محمد سيد محمد
المدرس بكلية الأعلام

ما هو الرأى العـام ؟

برز مصطلح الراى العام مع بروز التجمعات السكانية والتجمعات العمالية أو ما يمكن تسميته بالجماهير الغفيرة .

وقسم « جيمس برايس » (١٨٣٨-١٩٢٢ م) مراحل الرأى العام من حالته اللاواعية والسلبية إلى حالته الواعية والايجابية إلى أربع مراحل هى : مرحلة خضوع الرأى العام لإرادة الحاكم ؛ فمرحلة نشوء نزاع تتم تسويته باستخدام القوة ، ثم مرحلة تسوية المنازعات بالالتجاء إلى سيادة الغالبية عن طريق الانتخابات ، وأخيرا مرحلة التوصل — إذا أمكن إلى تنظيم جديد من شأنه تقرير إرادة الشعب فى كل وقت .

وقد اختلف أساتذة الصحافة حول تعريف الرأى العام ، وتشعبت تعريفاته لدى علماء النفس والاجتماع والسياسة.

وذهب الدكتور « أحمد سويلم العمرى » إلى القول بأنه من الصعوبة تعريف الرأى العام تعريفا محكما دقيقا ، غير أنه يمكن تقريبه إلى الذهن، اذا اعتبرنا الرأى العام ظاهرة فكرية ناجمة عن الحشد الذهنى للجماعات التى ترتب عليها قيام أقوى العلاقات الاجتماعية والنفسية للفرد ثم الجماعة وهى حركة اجتماعية تتأثر بما يأتى من الفرد فى إطار الجماعة ، وفى هذه الجماعة التى تلتئم فى كنف الرأى العام نجد فكرة معينة قد اختمرت فى نفوسهم كجماعة تتأثر بمؤثرات خارجية وعوامل ثقافية واقتصادية وتربوية ، وتتأثر — أيضا — بحياة الجماعة وموقف الفرد منها . ومن هنا فان الرأى العام يتكون بوحداته ثم بجماعته، وهو « ديناميكى » دائم الحركة والتبدل والتطور .

ومن خلال هذا القصور فان الدكتور العمرى يعرف الرأى العام بأنه : « مجموع آراء الناس ووجهة نظرهم فى الحياة العامة، وفى إصرار الدولة وسعيها لإسعاد الناس، وفى وجوب أن تعمل الدولة أو الجماعات القومية أو الدولية فى علاج شتى المسائل والمشكلات التى يقاس منها الفرد والجماعة».

ويعرف «ماكينون» الرأى العام بأنه «تلك العاطفة — إزاء موضوع معين — التى يرحب بها أكثر أعضاء الجماعة اطلاعا وذكاء وتمسكا بالأخلاق ، هذه العاطفة التى لاتلبث أن تنتشر ويعتنقها — تدريجيا — معظم الأشخاص الذين تتكون منهم جماعة متعلقة ذات مشاعر سوية فى دولة متحضرة».

ويقـــول : « س . ه . كوولى» « إذا شئنا أن ننظر إلى الرأى العام — من حيث حقيقته — يجب أن نعتبره عملية عضوية لامجرد حالة اتفاق حيال مسألة من مسائل وقتنا الراهن » .

وإذا استعرضنا أهم التعريفات الأخرى وجدناها تدور حول المحور الذى دارت فيه التعريفات السابقة .

فيرى «فاويد . ه.البورت» يعرف الرأى العام بأنه « تعبير صدر عن مجموعة كبيرة من الناس عما يرونه فى مسألة، أو اقتراح واسع النطاق ، بحيث يمكن استدعاؤهم لهذا التعبير سواء كانوا مؤيدين أو معارضين، وتكون نسبتهم العددية كافية لإحداث تأثيرمابطريق مباشر أو غيرمباشر».

ويعرف « كلاريدكنج » بأنه «الحكم الذى تصل إليه الجماعة فى مسألة ذات بال ، وذلك بعد مناقشات علنية ومستوفاة » .

أما «أليج » فيعرفه بأنه «ثمرة تفاعل الأفكار فى أى وضع من أوضاع الجماعة التى تصدر عنها هذه الأفكار » .

والدكتور محمد عبد القادر حاتم بعد استعراضه عدة تعريفات حول الرأى العام انتهى إلى وضع عدة قواعد عامة تحكم التعريف الأقرب إلى

الدقة والشمول . من هذه القواعد: أن الرأى العام هو الموقف الاختيارى وأن الجماعة أقل من الجمهور ، وأنها لاتشكل رأيا عاما جماهيريا ، ويشترط لقيام الرأى العام الشعبى أن تكون كل الجماعات منطوية داخل الجمهور الواحد وإلا كان هناك أكثر من جمهور ، وبالتالى كان هناك أكثر من رأى عام داخل الشعب الواحد ، وأن الآراء التى تفرضها التنظيمات والهيئات ذات السلطة على الأفراد قهرا لاتشكل رأيا عاما مهما كانت درجة الاتفاق فى الآراء ، لأن هذا الاتفاق إملاء ، وليس هناك مايمكن تسميته–علميا– رأيا عاما ثابتا دائما ، لأنه يشترط لقيامه أن يكون ناتجا عن حركة «ديناميكية» وإلا تحول إلى عقيدة أو قيمة أو عادة..إن الرأى سلوك ، وحصيلة معرفة الفرد،وهو لا يفرض فرضاً، بل يشترط لقيامه أن يكون ظاهراواضحا .

ويذهب الدكتور عبد اللطيف حمزة إلى أن الرأى العام هو الاتجاه الذى تتخذه الجماعة فى مسألة بعينها بعد بحث هذه المسألة من جميع وجوهها بحثا علنيا بطرق الصحافة أو الإذاعة أو غيرهما من وسائل الإعلام .وهو بذلك ليس نتيجة اندفاع عاطفى ، وليس بالضرورة انسياقا وراءالعادات والتقاليد؛وإنما هو نتيجة تفكير سليم فى المصلحة التى تعود علىالمجموع . وإن التعبير عن الرأى العام لا يكون إلا فى جو من الحرية التامة. ويفرق الدكتور حمزة بين الرأى العام والسخط العام والاتجاه العام .

فالرأى العام : هو مايصل إليه المجتمع الواعى بعد تقليب وجهات النظر المختلفة والآراء المتعارضة .والسخط العام : هو ماتصل إليه الجماهير بمجرد الإثارة والانفعال برجل واحد أو فكرة واحدة أو زاوية واحدة لاتكاد تسمح لغيرها من زوايا النظر الأخرى أن تظهر إلى جانبها والاتجاه العام : هو مايكون نتيجة لاتفاق الجماهير على شيء معين ترى فيه صيانة تقاليدها أو الدفاع عن دينها أو المحافظة على تراثها .

وكما اختلف الدارسون حول تحديد مفهوم الرأى العام فإنهم اختلفوا أيضا – حول أنواعه. فمنهم من ذهب إلى تقسيمه إلى ثلاثة أنواع :

(أ) الرأى العام المستنير ، وهو رأى الطبقة المثقفة فى الأمة .

(ب) الرأى العام المسيطر ، وهو رأى القادة والزعماء والحكومات

(ج) الرأى العام المنقاد ، وهو رأى السواد الأعظم من الشعب الذى لا يستطيع متابعة البحث أو الدرس .

ومن الباحثين من يقسم الرأى العام إلى :

١ ـ الرأى العـــام الكلى وهو مايتصل بالدين والأخلاق والعادات والتقاليد، وهو يمتاز بالثبات والرسوخ ويشترك فيه السواد الأعظم من الناس.

٢ ـ الرأى العام المؤقت وهو ماتمثله الأحزاب السياسية ، والهيئات العامة والخاصة وذلك عندما تسعى لتحقيق هدف معين فى وقت معين .

٣ ـ الرأى العام اليومى وهوالنوع المتقلب الذى تعتمد عليه الصحف اليومية
ومن الباحثين من يقسم الرأى العام إلى أربعة أقسام :

الأول : رأى الأغلبية أو الأقلية وهو رأى الجماعة حين تنقسم إلى قسمين .

الثانى : رأى الأقليات مجتمعة وهو رأى الأقليات الكثيرة حين تتفق أحيانا على رأى معين فى ظروف معينة ولهدف معين.

الثالث : الرأى الساحق وكثيراً مايكون نتيجة لاندفاع الشعب أو نتيجة لتكاسله فى بحث المشكلات العامة . ولكن الشعب إذا وصل إلى الرأى الساحق عن طريق البحث أو الدرس فانه يكون فى مثل هذه الحالة قد بلغ الذروة من الاستنارة والوعى ، ولكنه فى الواقع قلما يصل إلى ذلك .

الرابع : الرأى الجامع وهو ماتجمع عليه الأمة ، ولا يكون ذلك فى الأعم إلا فى الأمور التى ترتكز على ماضى الأمة وعاداتها ، وهو ماسبق تسميته بالاتجاه العام .

وخلاصة القول أن الرأى العام يرتبط ارتباطا عضوياً بالديمقراطية . فبقدر مايتاح من ديمقراطية فى مجتمع من المجتمعات بقدر ماتصدق التعريفات العلمية والمقاييس الدقيقة لقياس الرأى العام ومعرفته وسبر غوره . وإذا كانت كافة التعريفات والتقسيمات السابقة للرأى العام تشرح بطريقة أكاديمية وتحليلية مصطلح الرأى العام وأقسامه فإن النظرة الشمولية لمعنى الديمقراطية توجب علينا النظر فى مفهوم الديمقراطية المعاصر وارتباط ذلك بالرأى العام .

وإن تجارب الديمقراطية المعاصرة واضحة فى نظامين بارزين، ونظام ثالث فيه ضبابية وتأرجح ولكنه يختلف عن النظامين السابقين ، أما النظام الأول فهو الديمقراطية الليبرالية أو الديمقراطية الرأسمالية التى نراها بطريقة حية فى أوربا الغربية . أما النظام الثانى فهو الديمقراطية الاجتماعية وتقوم أساساً على فكرة تحرير رغيف الخبز من سيطرة الرأسمالية ، لتتحرر تذكرة الانتخاب وهذا النظام نلقاه فى البلدان الشيوعية ولكنه بطرق متفاوتة ودرجات مختلفة.

وأهم مايوجه من نقد للنظام الليبرالى المعاصر أنه لم يعد ليبرالياً ، وإنما أصبحت الاحتكارات هى التى تشكل جوهر النظام ونسيجه . أما أهم مايوجه من نقد إلى النظام الشيوعى فهو أنه قدم رغيف الخبز وكم الأفواه بنسب ودرجات متفاوتة .

أما النظام الثالث وهو خليط من النظامين السابقين ، فهو ثمرة التجارب المريرة لبلدان العالم الثالث فى البحث عن طريق ديمقراطى جديد بين ظروف دولية ومحلية بالغة التعقيد .

أين يقف مصطلح الرأى العام من كل هذه النظم والتجارب ؟

الواقع أن الرأى العام لايبدو مطابقاً للتعاريف والتقسيمات التى يسوقها — الأكاديميون . . لأن الصدق لايبدو فى المجتمع واضحا فى بعض الأحيان ، ولأن

وسائل الأعلام — بما تقدمه من معلومات — يتوقف عليها تكون الرأى العام ، ومن ثم تصنيفه . لذلك ينبغى أن ننظر إلى الرأى العام دائماً فى إطار المجتمع الذى يعكس هذا الرأى العام نظامه وحياته ومستوى الديمقراطية فيه .

جذور الرأى العام فى مصر الحديثة :

تمتد جذور الرأى العام فى مصر الحديثة إلى حملة نابليون بونا برت ، وما واكبها من اطلاع الرأى العام المصرى على العلوم الحديثة التى صحبت الحملة ، فان هذه اللمحات العلمية والحضارية التى جاءت مع الحملة كانت زاداً للوجدان المصرى وأفقاً جديداً أشد خياله وفكره .

وتقييم دور الحملة الفرنسية فى اليقظة الفكرية المصرية يصطدم برأيين مختلفين : يذهب أحدهما إلى أن هذه الحملة كانت الناقوس الذى أيقظ المصريين من رقادهم بما صحبته الحملة من علماء ومطبعة . وبما أجرته من تجارب ، وباشراكها علماء الأزهر فى الديوان وغير ذلك مما كان مجالا لاحتكاك العقلية المصرية الشرقية بالفكر الغربى . ورأى آخر يقول بأن مدة الحملة — وهى ثلاث سنوات — لا تستطيع أن تؤمن هذا التأثير وأن كل ماصحب الحملة ، وكل ماصنعه الفرنسيون لم يكن من أجل المصريين .. وأنهم حملوا تجاربهم ومطبعتهم وعلماءهم معهم عند رحيلهم .

والواقع أنه يمكن المزاوجة بين الرأيين ، فالحملة الفرنسية وما صحبها من زاد حضارى ، وإن لم تكن من أجل المصريين ، فانها فتحت الأذهان نحو حياة جديدة شغلت الرأى العام . ثم كان للجهود المصرية التى بذلت بعد الحملة فضل تثبيت هذه البذرة ، وفضل إمدادها بالنماء لتستوى على عودها .

وعلى أية حال فان أهم الدوافع التى كانت سبباً فى ظهور الرأى العام وتطوره يمكن أن نرجعها إلى مايلى :

١ — استبداد الحكام وفسادهم ، ولعل من المظاهر الصارخة لهذا الفساد السخرة والرشوة والضرائب الباهظة .

٢ ــ انتشار الثقافة والتعليم ، بانشاء المطبعة الأميرية عام ١٨٢٢م، صدور جريدة الوقائع المصرية عام ١٨٢٨م. وانشاء عدد من المدارس، وإرسال عدد من البعثات إلى أوربا . ثم نشاط الحركة الفكرية بظهور جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده وتلاميذهما . وكان نتيجة لذلك تكون تجمعات شعبية تبحث عن طريق للإصلاح مثل تلك الجمعية التى تكونت فى الإسكندرية والتى دعت فى عام ١٨٧٩م إلى إنشاء بنك قومى لإنقاذ البلاد من الاستبداد الأجنبى وتأليف هيئة شعبية باسم الجمعية الوطنية عام ١٨٧٨م، وإنشاء الجمعية الخيرية الاسلامية بمدينة الاسكندرية عام ١٨٧٨م أيضاً بفضل جهود عبدالله النديم وأصدقائه وجمعية المقاصد الإسلامية فى القاهرة وكان الامام محمد عبده من أعضائها.

٣ ــ ظهور الصحافة الشعبية وهى التى حملت على عاتقها تغذية الرأى العام والتفاعل معه والتأثير فيه والتأثر به . وقد كان دور الصحافة الشعبية الوطنية فى ذلك الوقت أقرب ما يكون إلى العمل السياسى الذى يهدف إلى توجيه حركة الجماهير التلقائية تجاه القضايا الوطنية إلى حركة منظمة لخدمة الأحداث الوطنية . أما الحركات الرسمية التى كانت إستجابة للرأى العام فأولها : إنشاء مجلس شورى النواب عام ١٨٨٦م . محاولات الإصلاح فى الإدارة والقضاء خصوصاً فى حكومة نوبار ، كذلك صدور دستور ١٨٨٢م وهو الدستور الذى تمخضت عنه الثورة العرابية التى تعتبر فى حد ذاتها أعنف صورة للرأى العام وآخر مرحلة من مراحل القوة التى وصل إليها فى القرن التاسع عشر .

التدخل الأجنبى فى مصر وقد كان من آثاره ظهور المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية وصندوق الدين والمراقبة الثنائية والوزارة الأوربية ، وما إلى ذلك من الأحداث التى أثارت شعور المصريين ودفعتهم إلى الثورة العرابية .

ظهور الطبقة البرجوازية المصرية واتساع قاعدتها ، وتحملها النصيب الأكبر من مسئولية النضال الوطنى .

هذه بصفه عامة جذور الرأى العام المصرى . . الذى بدت يقظته مفاجئة

آثار اليقظة المفاجئة :

لقد كانت يقظة الرأى العام المصرى يقظة مفاجئة . . وبدأت اليقظة بأزمة . . لقد كان المجتمع المصرى أشبه بمريض قضى زمناً فى غرفة مغلقة واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق . وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدفقت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى ما زال يتصبب عرقاً . لقد كان فى حاجة إلى نسمة هواء .. فأطلق عليه اعصار فأنشبت الحمى أظفارها فى الجسد المنهوك القوى .

هذا ما حدث لمجتمعنا تماماً ، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر بينما كان المجتمع الاوربى قد سار فى تطوره بنظام اجتاز الجسر بين عصر النهضة وبين أعقاب القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر خطوة خطوة وتلاحقت مراحل التطور واحدة إثر الأخرى . أما نحن فقد كان كل شىء مفاجئا لنا كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة ، كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله خصوصاً بعد تحول التجارة من الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح فاذا نحن مطمع دول أوربا ومعبر إلى مستعمراتها فى الشرق والجنوب . هبت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التى وصلنا إليها فى تطورنا تؤهلنا لقبولها ، كانت أرواحنا ما زالت تعيش فى آثار القرن الثالث عشر وان سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد . . وكان الشوط مضنيا والسباق مسعوراً ومخيفاً .

ويرجع الرئيس الراحل « جمال عبد الناصر » فى «فلسفة الثورة » عدم وجود رأى عام قوى متحد فى بلادنا قبل الثورة إلى هذه الحال ، لأن الفارق بين الفرد والفرد كبير والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ويرى الرئيس الراحل أن شعبنا صنع معجزة فقد كان من الحكمة أن تجرفه التيارات التى تدفقت عليه ، ولكنه صمد للزلزال ويقول : « صحيح أننا كدنا نفقد توازننا فى بعض الظروف ولكننا بصفة عامة لم نقع على الأرض . ويضرب مثلا بأسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التى تعيش فى القاهرة (قبل ثورة ١٩٥٢) الأب فلاح من صميم الريف والأم سيدة منحدرة من أصل تركى وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الإنجليزى وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى — كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .

سلسلة الاحداث واثرها فى تطور الراى العام :

إن العلاقة الجدلية بين التاريخ وتطور الرأى العام تؤكد التأثير المتبادل بينهما . وكما اختلفت الآراء حول تقييم دور الحملة الفرنسية ، فان اختلافها حول عصر محمد على وأثره فى الرأى العام المصرى أكثر . . إن النهضة الاقتصادية والادارية التى دخلت مصر فى عهد محمد على أسهمت فى البناء الاقتصادى كثيراً ، ولكنها لم تسهم بنفس القدر فى البناء المعنوى للانسان المصرى . ويمكن القول بأن كل الانشاءات التى أقامها محمد على لم يكن لها تأثير كبير على الحياة الثقافية بما فى ذلك المدارس التى افتتحها . فقد كانت مهمتها تخريج موظفين للدواوين الجديدة وكانت مناهجها عملية لدرجة لم تستطع معها أن تقدم شيئا للحياة الثقافية ، وقد أنشأ محمد على المطبعة الأميرية عام ١٨٢٢م، وقدمت ٢٤٣ كتابا فى العشرين سنة الأولى من إنشائها كانت معظمها فى الشئون العسكرية والبحرية ولم يكن نصيب الأدب غير كتابين فقط . ومحمد على هو أول من قسم التعليم إلى مدارس دينية وأخرى عامة تلك التى عاونت بحماس فيما بعد فى تقسيم الرأى العام ولكن الرأى العام المصرى نما نموا سريعاً عقب الاحتلال وما تبعه من كفاح وطنى .

ثورة ١٩١٩ م :

مع اشتداد الحركة الوطنية وانطلاقتها الواسعة فى ثورة ١٩١٩ ، أصبح الرأى العام عملاقا وأصبحت له بهذه الثورة قاعدة واسعة اكسبته قوة ونفوذاً فلم يعد الرأى العام قاصراً على كبار ضباط الجيش ، والبرجوازية المصرية الناشئة كما كان الحال أيام عرابى ، أو قاصراً على المثقفين والشبان كأيام مصطفى كامل . وإنما أصبحت مشاركة الفلاحين فى ثورة ١٩١٩ سببا فى اتساع قاعدة الرأى العام وقوته . وقد انتشرت على ألسنة الناس بعد ذلك عبارات التقديس لسعد زغلول مثل قولهم «إن فى إحراج سعد إحراجا للأمة لو رشح الوفد حجراً لانتخبناه ، الإحتلال على يد سعد خير من الإستقلال على يد عدلى » . ويعبر إعلان تصريح ٢٨ فبراير ورئاسة ثروت باشا للوزارة المصرية ، كان الرأى العام المصرى مشغولا عن الرئيس الجديد بالزعيم المنفى إلى (سيشل) وبحركة الإغتيالات لكبار الموظفين الإنجليز ، وللمصريين القريبين من الإنجليز حتى ان ثروت نفسه تم اكتشاف محاولة لاغتياله .

ولقد أخذت وزارة « ثروت » من تلك الظروف ذريعة لمصادرة الحريات فمنعت الإجتماعات السياسية إلا لمؤيديها ، وعطلت جريدة الأهالى نهائيا فى مايو سنة ١٩٢٢م، وجريدة الأمة ثلاثة أشهر فى ٦ يوليو سنة ١٩٢٢م، وعطلت جريدة (الليبرتية) نهائيا فى يوليو أيضا سنة ١٩٢٢م، كما تم تعطيل جريدة الأهرام ثلاثة أيام . ومن الغريب أنها أصدرت تعليمات للصحف بعدم ذكر اسم سعد زغلول وزملائه المنفيين فى مقالاتها أو أخبارها . وهو شطط وتعسف يزيد عن الحد .

وذهبت وزارة « ثروت » فى نفس العام لتجئ وزارة « نسيم باشا » رئيس الديوان الملكى وكانت وزارة ضعيفة هزيلة فأخذ الرأى العام يتبرم من عدم إهتمام هذه الوزارة باطلاق سراح سعد وصحبه ، فلم يجد أمامه إلا تجديد حوادث إغتيال البريطانيين ، فاستقالت هذه الوزارة بعد شهرين بعد أن حاولت فسخ الدستور . وتتابعت الأحداث بنجاح الثورة ورجوع سعد زغلول .

وقد كان للأدب إسهام كبير فى تغذية الرأى العام . فقد شارك الشعر فى الثورة سنة ١٩١٩ ، فهذا حافظ إبراهيم يصف حكام الجيش الإنجليزى الذين ضربوا المظاهرة النسائية التى خرجت فى ١٩ مارس١٩١٩م بأسلوب لاذع ساخر فيقول :

فليهنأ الجيش الفخور بنصره وبكسرهن
فكأنما الألمان قد لبسوا البراقع بينهن

وعندما مات سعد زغلول سنة ١٩٣٧ رثاه حافظ بقصيدة قال فيها يخاطب الأنجليز :

وأتيتم بالحائمات ترامى تحمل الموت حائماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً ووعيداً ورحمة وعذابا
هل ظفرتم منا بقلب أبى أو رأيتم منا إليكم مشاباً ؟
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها إن عند العرين أسداً غضابا

كما كان للأدب دور فى إبراز المشاكل الاجتماعية والدعوة إلى العدل الاجتماعى بما يؤكد أن سلسلة الرأى العام متصلة الحلقات .

ويرى « محمد عبد الغنى حسن » فى كتابه « الفلاح فى الأدب العربى » أن حركة تصوير بؤس الفلاح العربى يمكن ملاحظتها فى الشعر الحديث بعد عام ١٩٣٠م فحسبما يرى المؤلف أن أعوام ما بعد الحرب العالمية الأولى لم يرتفع فيها صوت بالشكوى من سوء حال الفلاح بسبب الرخاء الذى واكب ارتفاع أسعار القطن نتيجة للحرب ، فقد غطى امتلاء جيبه بالنقود على بؤس عيشه وانحطاط مستواه الاجتماعى .

وقد نشر الشاعر أحمد محرم قصيدة فى صيف ١٩٣٢م يصور فيها بؤس الفلاح بقوله :

هلا سألت عن الفلاح ماصنعت ... بهالخطوب وهل أبقت له جلداً؟
جفت موارده القصوى فطاح به ... ما ذاق من عنت الأيام أو وردا
إن يطلب المال تعجزه وسائله ... وإن يصبه يجده صاحباً نكداً
عن الكنانة إن أودى به حدث ... فلن ترى بعده عوناً ولا عضدا
ما انفك يصفر حتى جف ... ماانفك يصفر حتى جف أوجهدا

ويتهكم شاعر مصرى على « المحسوبية » فيقول :

لا أبالى ازاء نفع الاقارب والاصهار ... جف النيل أم ذوت الثمار

التمهيد لثورة ١٩٥٢ :

ولقد حمل الأدب فى هذه الفترة التى تتعرض لها بالدراسة والبحث بذور الثورة التى قادتها الطليعة فى يوليو عام ١٩٥٢ ، ولم يتخلف واحد من كبار الأدباء فى كتاباته عن الاسهام فى محاربة الظلم وتأييد قضية الحرية والاستغلال والعدل ، بل إن بعض الأدباء لم يكتف بالكتابة فقد دفعته الظروف الى الوقوف أمام الطغيان وجها لوجه ومثال ذلك قول العقاد المشهور فى البرلمان بأن الشعب على استعداد لأن يسحق أكبر رأس فى البلد يقف امام الدستور ودبرت تهمة العيب فى الذات الملكية وزج به فى السجن عام ١٩٣٠م وبقيت كلمته المشهورة دورة فى تاريخ النضال الوطنى .

واذا ضربنا الأمثلة عن بذور الثورة فى كتابات الأدباء الكبار فى هذه الفترة ، فان أول النماذج وأوسعها حظا من الشهرة قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم . تلك القصة التى رأى فيها النقاد أول الامر قصة حب عادية وذهبوا إلى أنها قصة الحب الأول لتوفيق الحكيم ثم سرعان ما تبين لكثير منهم أن عودة الروح هى قصة مصر فى البحث عن فارسها وبطلها الموعود كما رأى بعض النقاد أنها تكشف الصراع الدائر بين الفلاحين والاقطاعيين

الاتراك وبين المصريين والانجليز وانها تقوذ الوجدان الى أهمية الوحدة الوطنية فشخصيات القصة يجمعها المرض والحب والسجن . . ونموذج آخر فى صورة فنية اختار لها الدكتور طه حسين عنوانا « الغانيات» فى كتاب «جنة الحيوان » .

* من أين أقبلت يا ابنتى ؟

* من حيث لا تبلغ الظنون .

* ماذا تريدين يا ابنتى ؟

* اريد مالا تقدرون ؟

* كيف تقولين يا ابنتى ؟

* أقول مالا تصدقون . . .

* اسرفت فى الرمز يا ابنتى . .

* بل مالكم كيف تحكمون .

بأين ؟ . . وماذا ؟ . . وكيف ؟ . . يبدأ الشيخ لوحة الدكتور طه حسين سؤال الفتاة الجميلة والرقيقة التى بدت فى غضون الشجر على ذلك النحو ، ثم لا تفهم من حديثها شيئا . كان الشيخ فى طريقه من القرية الى قصر الباشا الحبيب الى نفسه ، والذى يستشيره فيما يعرض له من الامور وكانت الشمس — كما يقول الدكتور طه حسين — قد تولت كالامل الخائب الكذوب وظلمة الليل حلت كاليأس إذا يدب فى القلوب . وينكر الشيخ نفسه ويخشى أن يكون قد أصابه الجنون ، أو أن هذه الجنيه التى تحاوره ويحاورها ستقوده حتما إلى الجنون . ويغيب الشيخ عن الباشا يوما ولكنه عندما يذهب إليه فى اليوم التالى يخبره الباشا بقلق شديد أنه رأى مثلما رأى الشيخ وأنه سألها فلم يسمع منها إلا الأجوبة الغامضة . وخشى الباشا الجنون فاستدعى الطبيب ولكن الطبيب لم ينفعه بشىء . فلما ملأ

الخوف قلبه ترك القرية الى القاهرة ، ولكنه وجد أهل المصانع كلهم يتحدثون هذا الحديث . وشاع فى النفوس أمل لا حد له وشاع فى النفوس يأس لاحد له ، وأصبح الثمانية عشر مليونا من المصريين لكل واحد منهم فتاة حسناء حازمة صارمة ، وعندما يزداد قاق الباشا ويسأل عن اسمها نقول ساخرة ان اسمها العدالة الاجتماعية .

هذه نماذج من كتابات شيوخ الادب ، فاذا استعرضنا بعض النماذج لشعارات الشباب التى كانت انعكاسا لقاعدة عريضه من الرأى العام فاننا نجد ذلك فى كتابات وفكر القيادة التى ظهرت على مسرح العمل الوطنى عام ١٩٤٦م من اللجنة الوطنية للعمال والطلبة منها :

* الحكومة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرا . ان جانبا ضخما من ثروة مصر تحتكرها أقلية من الناس ولا يبقى لغالبية الشعب غير المرض والفقر والجهل . وان الباشوات الرأسماليين يشتركون فى مجالس إدارة عدة شركات بلغ استغلالها للشعب حدا كبيرا ولا هدف لها غير توفير الربح الفاحش لحفنة من كبار الرأسماليين .

* إن جموع الامة عاقدة العزم على تغيير الأوضاع الاجتماعية .

* إن القوانين فى معظمها لمصلحة الرأسمالية .

* الناس سواسية كأسنان المشط ، وإن فى هجرة الرسول الى المدينة معنى الثورة على الجوع والفقر .

* يجب على الطبقات الشعبية أن تقوم اليوم بالدور الرئيسى فى الحركات الوطنية لأن الطبقات الحاكمة الحالية تتعاون مع الاستعمار .

* إن سوء توزيع الثروة القومية يتطلب إعادة توزيع الأرض ومنحها للفلاحين فى شكل ملكيات صغيرة وإنشاء نظام تعاونى .

* ان الشرق لن يتحرر بالمهانة والاستجداء ولكن بالعنف والثورة.. وفى مصر ثورة تأخذ نيرانها فى الازدياد كل يوم . . بل كل ساعة .

* وهل يجدى مع الأحرار قضبان وسجان .
إذا كنا شرارات فنحن اليوم بركان . .

ياأخى تنعم الكلاب لدى القوم ونشقى فيالها من مضحكات
اطلق الثورة التى تسكر الصدر وجفف دموعك الماضيات
هى حرب الحياة إما الحياة وإما ممات يكون معنى الحياة

هذه نماذج على سبيل المثال تبين ملامح الرأى العام وتطوره فى مصر فيما بين ثورتى ١٩١٩ ، ١٩٥٢م .

التعليم هو القاسم المشترك :

يعد التعليم من أهم عوامل تطور الرأى العام ، فقد أدى الى ظهور جيل من الاساتذة كان لهم أثرهم فى الاجيال اللاحقة . وسنتناول هنا التعليم كقاسم مشترك يبين لنا تطور الرأى العام المصرى فيما بين ثورتى ١٩١٩ ١٩٥٢م، ولا بد ان نبدأ ذلك منذ الاحتلال . لقد أصيب بضربة مباشرة بعد الاحتلال .

ففى عام ١٨٨٥م نجد ميزانية التعليم ٨٤٦٨٩ جنيها وبعد خمس سنوات هبطت الى ٨٠٣٣٨ جنيها . وكان التعليم فى مصر خلال ٢٥ عاما قضاها «كرومر» فى تدهور مستمر بسبب سياسته الشديدة العداء للشعب المصرى . وفى عام ١٨٨٩ صدر قرار بجعل لغة التعليم فى المدارس هى اللغة الانجليزية . وبذلك قضى الاحتلال على النهضة التعليمية التى بدأت فى عصر إسماعيل بفضل على مبارك الذى حرص هو وتلاميذه على توسيع هذا التعليم وتطويره فقد أنشئت دار العلوم عام ١٨٧٢ ، وفى عام ١٨٧٣ افتتحت أول مدرسة للبنات تحت رعاية زوجة إسماعيل — وان كان هذا التعليم لم يستطع أن يحرر نفسه من المذهب القديم فى تضخيم الحقائق والسير الشخصية الا أنه كان من وجهة نظر المصريين بداية موفقة لنمو الحياة الثقافية فى مصر .

ويقول « فاداف سافران » إنه لا يمكن إنكار اتهام الوطنيين المصريين للانجليز فى مجال التعليم لأنه يجب أن يقال إن التعليم سار ببطء شديد تحت الحكم البريطانى واستمر التعليم فى هذه المرحلة يهدف لتخريج موظفين للحكومة . وليس هناك أى دليل على أن المصريين لم يكونوا فى نهم الى التعليم فقد كان إقبالهم على المدارس الخاصة والمدارس الأجنبية واضحا تماما .

ويستعرض «ناداف سافران» البعثات التعليمية إلى الخارج فى ظل الاحتلال فيقول إن ٧٥٪ من البعثات أرسلت لبريطانيا وإن ٦٥٪ من الدراسين دراسات انسانية اجتماعية . فى حين أن البعثات التى قبل الاحتلال البريطانى كانت معظمها إلى فرنسا فان ٧٠٪ من الدارسين تلقوا تعليمهم فى فرنسا بالإضافة إلى الذين تعلموا على نفقتهم الخاصة وكانت وجهتهم فى الغالب فرنسا أيضا.

والواقع أن قضية التعليم فى مصر كانت قضية وطنية فى المحل الأول : . وكان إنشاء الجامعة معركة وطنية تجمعت لها قوى الشعب المفكرة وتبرع الناس لإنشائها .

وقد لاحظ المؤلف الامريكى « ولترلاكير » فى كتابه «القومية الشيوعية فى الشرق الاوسط » أن الطلبة فى مصر لعبوا دورا فى الحركة الوطنية المصرية يفوق بشكل واضح مالعبه غيرهم من الطلبة فى بلاد العالم بما فى ذلك الصين وروسيا .

ولقد كان الشعب المصرى الذى تخرج فى الجامعة الأهلية ثم فى الجامعة الحكومية طلائع مثقفة للشعب أمدت جيلها . ومابعده بالفكر والثقافة . ولقد كانت الجامعة المصرية إلى جانب كونها معركة وطنية مركزا للإشعاع والنور الذى ساعد الشعب على اكتشاف طريقه فى الحرية والاستقلال والفكر والفن وغير ذلك من أسباب الحضارة .

ومن قبل الجامعة ظل الازهر يقوم بالدور كله وكان لأساتذته وطلبته ثقلا سياسيا كبيرا ثم أنشأ محمد على المدارس المدنية كمدرسة الهندسة التى أنشئت عام ١٨٢٠م والطب والصيدلة والطب البيطرى عام ١٨٢٧م وكانت تستمد طلبتها من الأزهر .

ومن ثم بدأ انتقال القيادات السياسية ومواقع الحركة الوطنية إلى هذه المدارس الجديدة ثم إلى الجامعة التى افتتحت عام ١٩٠٨م، ولكن الأزهر ظل عنصرا فعالا فى الثقافة والسياسة .كانت محاولة الاحتلال والرأى هى السيطرة على الازهر وإبعاده عن الحياة السياسية والتأثير فيها ، ولم يكن من الممكن أن يتولى الاحتلال إدارة تلك الجامعة الإسلامية فاشتغل بها القصر . وكان تعيين شيخ الأزهر يصدر بمرسوم ملكى .

وإذا كان الأزهر قد فشل فى إبراز صفوة من الزعماء كما كان يفعل من قبل من خلال الفترة التى نتعرض لها بالدراسة والبحث فإنه لم يفشل فى تخريج مدرسى اللغة العربية للشعب كله ، وتخريج الوعاظ وأئمة المساجد الذين كان لهم دور هام فى توجيه الرأى العام فى الريف حيث الأمية . وليس للأزهر ذنب . فقد فرض عليه الحصار . ورغم ذلك أسهم طلبته فى كل أدوار الكفاح السياسى مع طلبة الجامعة والمدارس .

كما أن للأزهر دوره الخالد فى حفظ التراث الإنسانى والإسلامى والعربى عقيدة ولسانا وبفضل الأزهر ظل التيار الاسلامى صاحب التفوق فى الرأى العام المصرى ضد كل مذاهب الإلحاد والتحلل الوافدة من الخارج .

ولقد أثرت الأزهرية حتى على برامج الجامعة الوليدة ، فلقد كانت المواد الخمسة التى بدأت بها محاضرات الجامعة الاهلية عند افتتاحها عام ١٩٠٨ هى :

١ — الحضارة الاسلامية .

٢ — الحضارة الشرقية القديمة .

٣ — الجغرافيا والتاريخ عند العرب .

٤ — آداب اللغة الفرنسية .

٥ — آداب اللغة الإنجليزية .

وقد كانت بداية الجامعة بهذه المحاضرات التى تلقى بعد الظهر بداية متواضعة لما صار إليه أمرها فيما بعد . فقد بلغ إنشاء الكليات من عامها الثالث . وظلت الجامعة أهلية حتى عام ١٩٢٥م وانتقلت جامعة القاهرة التى كان يطلق عليها جامعة فؤاد الأول إلى مبناها الحالى عام ١٩٣٣م. وأدمجت مدرسة الهندسة فيها عام ١٩٣٥م وتوالى إنشاء الكليات بها حتى أصبحت من أعظم جامعات الشرق والغرب .

وفى الإسكندرية بدأت جامعتها بانشاء فرع لجامعة القاهرة عام ١٩٣٨م يضم كلية الحقوق وكلية الاداب ثم أنشئت كلية الهندسة فيها عام ١٩٤١م ومن هذه الفروع الثلاثة بدأت الجامعة عام ١٩٤٢م، والتى تغير اسمها بعد الثورة من جامعة فاروق إلى جامعة الأسكندرية .

أما الجامعة الثالثة فقد ولدت عام ١٩٥٠م حيث كانت هناك معاهد عليا جانب الجامعتين السابقتين . وكانت هذه المعاهد مهنية إلى حد ما لأنها تخصصت — غالبا — فى تخريج المدرسين وفى شهر يوليو من عام ١٩٥٠م ولدت فى القاهرة جامعة إبراهيم باشا التى سميت بعد الثورة بجامعة عين شمس وذلك حسما للمشاكل الناجمة عن قصور مناهج الدراسة بالمعاهد العليا ورغبة للشعب فى التعلم الجامعى ومطالبة الطلبة فى المعاهد العليا بمعاملتهم معاملة زملائهم فى الجامعات وقد ضمت الجامعة الوليدة المعاهد العليا وطورتها وضمت كليتين جديدتين على الجامعات المصرية هما كلية التربية، وكلية البنات . وعقد أول اجتماع لمجلس الجامعة فى ٢١ اكتوبر سنة ١٩٥٠م برياسة الدكتور طه حسين وزير المعارف إذ ذاك ، وحضور الدكتور محمد كامل أول مدير لهذه الجامعة وعمداء الكليات . ولم تكد هذه الجامعة تخطو خطواتها الأولى حتى شبت الثورة التى أهدتها الكثير من قصور الأسرة المالكة وسهلت لها الأمور ومدت لها يد العون حتى وقفت على قدميها جامعة كبيرة عظيمة .

أما عن «المدرسة» فقد فرضت الأوضاع قبل الثورة ،طبقية ثقافية تمثلت في ثنائية التعليم الابتدائي التي تسير في خطين متوازيين لايلتقيان :

١ — خط التعليم الابتدائي فالثانوى فالجامعى وجواز المرور فيه نقطة البداية إلى أقصى نهاية والاقتدار المالى على دفع رسوم الدراسة وأجر التعليم ونفقاته الباهظة .

٢ — أما أبناء الفقراء — حيث القاعدة الشعبية — فلهم طريق آخر يبدأ بالكتاتيب والمدارس الإلزامية ومنها إلى المعاهد الأزهرية ومدارس المعلمين الأولية التي يقف عندها طموح الطامحين وكفاح الأذكياء الموهوبين.

والهيئة التعليمية في مدارس الشعب المجانية مختلفة تمام الاختلاف عن بيئة المدارس التي هي بمصروفات اعنى المدرسة الابتدائية ومابعدها — وهذه مختلفة أيضا عن مدارس الارساليات الأجنبية التي كانت تمارس نشاطها الثقافي بمصر قبل الثورة دون رقيب أو حسيب .

تقول الدكتورة بنت الشاطىء : « لقد كنا نذهب إلى الكتاتيب والمعاهد الأزهرية أو إلى المدرسة الإلزامية ودور المعلمين والمعلمات الأولية فنقطع الشوط كله دون أن نتعلم حرفا واحدا من لغة أجنبية أو نشاهد أى جهاز من الاجهزة العلمية أو نسمع عن تجربة من التجارب المعملية على حين كان تلاميذ المعاهد الاجنبية لايكادون « يفكون الخط العربى ». والآخرون في المدارس الاميرية بمصروفات يتعلمون الإنجليزية من السنة الأولى الإبتدائية، ثم يضيفون إليها الفرنسية في المرحلة الثانوية ويتلقون دروس الطبيعة والكيمياء في المعامل المزودة بالأجهزة العلمية التي لم تكن تخلو منها مدرسة ثانوية ».

ومدارس المعلمين والمعلمات كانت المصدر الوحيد الذى يورد لمدارس الشعب المجانية معلميها ومعلماتها ونظارها وناظراتها ، ومعاهد الأزهر الدينية كانت المصدر الوحيد الذى يخرج وعاظ المساجد وأئمتها ، وطبيعى أن هؤلاء وأولئك كانوا لايملكون أن يفتحوا أمام تلاميذهم أى منفذ يطلون منه على العلم الحديث والثقافه العصرية ، فذلك كله كان من نصيب المدارس الابتدائية التي كانت هيئة التدريس فيها من حملة الشهادات العليا .

وفى الفترة مابين عامى ١٩١٩ ، ١٩٥٢م وبتأثير النضال الشعبى اتسع نطاق التعليم اتساعا ملحوظا إلا أن الفئة المسيطرة على الجهاز التعليمى فى ذلك الوقت كانت تبذل جهودها من أجل حرمان الطبقات الشعبية من حق التعليم المجانى ، وظهر الاتجاه المعارض المتمثل فى نقص فكرة مجانية التعليم بل ومحاربتها ، والمطالبة برفع ثمنه ارتفاعا معتدلا ، وفى السنوات الأخيرة من هذه الفترة ظهرت مطالبات وطنية بالتوسع فى التعليم وإصلاحه ولكن حتى هذه وضعت فى قالب طبقى بحيث يكون إصلاح التعليم فى إطار ثنائيته التقليدية .

وتتسم هذه الفترة أيضا بأن الحركات الإصلاحية فيها كانت مجرد مطالب لم تقابل بالتنفيذ العلمى إلا سنة ١٩٥٠م عندما أصدر الدكتور طه حسين وزير المعارف حيذاك قانون مجانية التعليم الذى كان أعلى درجة من التقدم وصل إليها التعليم فى الفترة السابقة على ثورة يوليو. كما كان لوزارة المعارف دور خاص فى نشر الثقافة بانشاء إدارة لها عملت على نشر الكتب وتغذية الرأى العام بالثقافة العامة .

كما ساهمت الجامعة العربية ببعض الجهد بانشائها إدارة ثقافية بها وكان لإنشاء الجامعة الشعبية أيضا أثر ملحوظ على الثقافة ، كما كان لتزايد عدد المكتبات أثر ملحوظ خصوصا فى الأقاليم .

إن هذا المقياس وهو التعليم لاينفرد وحده ببيان تطور الرأى العام المصرى ، ولكنه — فيما أرى — هو القاسم المشترك لبيان هذا التطور لأن التعليم خلال الفترة ١٩١٩ إلى ١٩٥٢م كان تعبيرا مصريا عن الثقافة بوجه عام ، ولأن التعليم فى مصر كان قضية وطنية ، ولأن حركة التعليم كانت جزءاً من الحركة الوطنية ، ولاشك أن باحثين غيرى سيجدون فى مجالات أخرى كالصحافة أو الأدب أو الشعارات أو القضايا السياسية والاجتماعية مجالات أخرى يقيسون بها تطور الرأى العام المصرى ولكنى أردت أن اقتصر على التعليم باعتبار أنه كان يضم فى محتواه وفى جمهوره الكثير من ثمار تلك المعاملات العديدة .

د . محمد سيد محمد

المـــراجع

— أحمد سويلم العمرى . الرأى العام والدعاية ، القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر .

— أحمد محمد أبو زيد : سيكلوجية الرأى ورسالته الديمقراطية ، القاهرة عالم الكتب .

— جمال عبد الناصر ، فلسفة الثورة .

— شهدى عطيه الشافعى ، تطور الحركة الوطنية فى مصر .

— عبد اللطيف حمزة ، المدخل فى فن التحرير الصحفى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٥م .

— عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، الجزء الأول القاهرة ، دار الفكر العربى .

— فؤاد دياب ، الرأى العام وطرق قياسه ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر .

— ماهر حسن فهمى ، الأدب والحياة فى المجتمع المصرى المعاصر .

— محمد عبد القادر حاتم ، الرأى العام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية .

— جريدة الاهرام ٢٠ / ٨ / ١٩٦٥م .

— مجلة الطليعة ، نوفمبر ١٩٦٥م .

- Nadaf Safran, Egypt in Rearch of Poletical Community.